# من فلسطين إلى السودان

## جولة موظف بريطانى

قد لا تكون الكتب التى تبحث فى السياسة أحب الكتب إلىّ ، وقد لا أراها تجتذبنى وهى معروضة لدى بائعى الكتب ، كما تجتذبنى كتب الفنون والتاريخ . ولكن هذا الكتاب الذى أعرض له اليوم استرعى نظرى ، لا بعنوانه فعنوانه الذى هو «جولة الواجب»[1] لا أجد فيه جاذباً خاصا ، ولكنه استرعى نظرى باسم مؤلفه سير ستيوارت سيمز . فهذا الاسم قد لا يكون غريباً علىّ و إن كنت نسيت أمره لأول وهلة ، ولكنى مالبثت أن تذكرت أنه حاكم السودان فى عهد قريب . وكلمة السودان فى هذه الأيام تثير شعور كل مصرى ، ولعلها تثير اهتمام غيره من العرب . لذلك لم يكن عجيباً أن أخذت الكتاب فى لهفة وعكفت على قراءته .

ليس للكتاب أهمية خاصة ؛ فهو لا يمتاز بأناقة فى الأسلوب ، ولا هو أخاذ بحسن السرد ، ولا بنظامه فى ترتيب الموضوعات . وإنما خير ما يمتاز به الكتاب صراحة صاحبه ؛ فالرجل ، كما تستبين من كتابه ضيق الأفق فى السياسة ، لا يسائل فيما يؤمر أن ينفذه فى عمله ، ولكنه واسع الحيلة فى تنفيذ هذه السياسة ، يعرف كيف يصل إلى غرضه ، يساعده على ذلك اعتدال فى طبعه ، وصراحته أو مظهر صراحته ؛ فهو يرى فى هذه السياسة واجباً يؤديه ، لذلك أسمى كتابه « جولة الواجب » .

كانت حياة ستيوارت سيمز سلسلة منتظمة من أداء الواجب ، منذ التحق بخدمة حكومته ضابطاً صغيراً بالهند فى أول هذا القرن ، إلى أن ترك هذه الخدمة حاكماً للسودان فى سنة ١٩٤٠ . ويظهر أن حكومته عرفت فيه الاخلاص للواجب ، كما عرفت فيه خير من ينفذ سياسة من السياسات بدون مساءلة أو

(١) *Tour of Duty*, by Sir Stewart Symes. Collins, London, 1946.

تردد ، فصار ينتقل من عمل إلى عمل ويترقى من عمل أصغر إلى عمل أهم ، حتى استطاع أن يشغل عملين نرى أنهما فى المكان الأول من الأهمية : أولها عمله بفلسطين بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٢٨ ، حين كان حاكماً لإحدى القاطعات فى السنوات الأربع الأولى ، ثم سكرتيراً عاما بالقدس فى السنوات الأربع الأخيرة . أما العمل الثانى الذى له أهمية كبيرة فهو منصبه حاكماً للسودان بين سنتى ١٩٣٤ ، ١٩٤٠ ، ثم اعتزل العمل ، وظل ست سنوات فى عزلته حتى أخرج لنا كتابه ، الذى أردنا أن نعرض بعض صوره ، ناقلين آراءه فى هذا ، وفى بعض الأحيان عباراته نفسها .

فى هذا الكتاب نجد صوراً عن حياته الأولى فى السودان وفى غير السودان كبلاد الهند ومصر . وفيه نرى ذكراً لكتشنر وأيامه فى السودان ، وكرومر وونجت وسير غورست الذى خلف كرومر ممثلا لبلاده فى مصر . ونجد وصفاً لمصر فى عهد وزارة مصطفى باشا فهمى ، ووصفا لمن فيها من شخصيات بارزة . ولكنه فى ذلك الحين كان أقرب إلى المشاهد منه إلى الرجل الذى يشترك فى تسيير الأمور . أما فى فلسطين ، لا سيما فى الفترة التى شغل فيها منصب السكرتير العام الادارى ، فقد كان مسئولا عن تنفيذ سياسة مرسومة ، وكان هو يعلم ذلك حق العلم ، ويعلم أن حكومة تلك البلاد تمثل فى صورة مصغرة جميع المشاكل التى تعترض بلاد الشرق والغرب معاً . ولقد عهد إليه بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٢٥ فى إدارة مقاطعة تمتد من الخليل إلى سمره . ولم يكن هذا الإقليم معقد المشاكل مثل إقليمى القدس ويافا ، على أن فيه ميناء كبيراً ، هو حيفا ، وبلدة نامية هى نابلس ، وأهله مزيج يغلب فيه المسلمون ، وقد قامت بينهم الحركة الصهيونية فرأوا فيها نذيراً ، وتغلبت على ما عداها من اختلافات محلية .

وكان الموظفون الإداريون على الغالب غير خبراء بأعمالهم ولكن كانت عند كل منهم الرغبة فى العمل . وكانوا يتلقون تثقيفهم على يد الجمهور ، وعلى يد رؤسائهم .

وكان المندوب السامى عندئذ سير صموئيل هور وهو إسرائيلى ، وصادف أن النائب العام كان إسرائيليا أيضاً ؛ فكان العرب يشكّون فى عدم تحيز الحكومة . وقد حدث فى ذلك الوقت أن أريد عقد اجتماع للغرف التجارية فى حيفا يرأسه المندوب السامى ، ورأى العرب مقاطعة هذا الاجتماع ، فالتجأ المؤلف إلى أحد

أصدقائه من العرب المتحمسين ، وعمل على إقناعه حتى وافق على أن يحمل زملاءه على الحضور ، ولم يفعل ذلك إلا رغبة فى إرضاء صديقه .

وانتهت مدة خدمة سير صموئيل هور ، كما نقل عندئذ ألبرت كليتون الذى كان سكرتيراً عاما لحكومة فلسطين ، فاذا بسيمز يعين فى مكانه ، ولم يكن ينتظر هذا التعيين . وظل ثلاثة أشهر يحكم البلاد ، إلى أن حضر المندوب السامى الجديد ، وهو فيلد مارشال لورد بلرومر . وكان يومئذ فى السبعين من عمره ، يدل مظهره على النشاط والعزيمة ، وفى عينيه بريق أشبه ببريق الشباب ، وكان يسأل عن الأمور ، ولكنه على غير عادة الحكام كان يصغى إلى الجواب فى اهتمام .

وقد أراد سيمز أن يتركه وشأنه حتى يصدر حكمه على عمله الجديد . فاذا به بعد أيام شاقة يقول إن هذه البلاد لا تخلو مما يسترعى النظر . وكان سيمز قد انتدب ليحضر اجتماع جمعية الأمم ليتكلم عن الانتداب . وجاءت وفود العرب واليهود يقابلون المندوب السامى ، كل يدلى بآرائه ، فاذا بالمندوب يقول لسيمز بعد مقابلة هذه الوفود إن كلا منهم ينتظر أن تمثل آراؤه المتعارضة فى جنيف .

ولقد ذهب سيمز إلى جنيف ثم لندن ثم عاد إلى فلسطين ، ووثق أن سياسة الحكومة الانجليزية قد رسمت ؛ فالحلم الذى بناه العرب بالنشاء إمبراطورية ، والفكرة الكبيرة عن التآلف بين الدول العربية ، بحيث تكون كل منها مستقلة فى ذاتها ولكنها متحدة فى سياستها ، لم تستطع أن تعيش إلى جانب الحقائق الخشنة للسياسة التى تنتهجها الدول العظمى ، وللخلافات بين العرب وعدم التنظيم . وكذلك ذهب مع الفكرة الكبيرة ، ذلك الأمل فى أن يتقدم أمير صهيونى ملىء الجيب بالأموال ليخطب فلسطين عروساً له ، ويدخل فى خدمة مجموعة كبيرة من الدول العربية أو السامية . ولقد عرف الحلفاء و بريطانيا خاصة فى أثناء الحرب ، كيف يتقاضون من اليهود مساعدة مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين . وتقدم العالم اليهودى يطلب تحقيق الوعد فى الدولة الجديدة ، ولكن بريطانيا أمة من التجار الحذرين لها آراء ديمقراطية ، ولها إمبراطورية تحتوى على ملايين من المسلمين ، فأخذت تعالج الأمر بالتجارب والمناقشات والمفاوضات دون أن تصل إلى نتيجة ، ولم يبق أمامها إلا الوقوف والانتظار .

وقد ظن سيمز أن شكوى العرب قائمة من مطالبهم وحاجاتهم الاقتصادية ، ولذلك أخذ يدرس نظما للاصلاح ، وتحدث مع زعماء كل من العرب واليهود ، فوصل إلى اتفاق غير مكتوب بينهما بأن يلزم كل فريق جانب السكينة . وقد وفى الفريقان بهذا العهد طوال المدة التى قضاها لورد بلومر حاكماً على فلسطين ، وبهذا الاتفاق استطاع أن يسرح رجال الشرطة من البريطانيين ، وأن يوفر الكثير من النفقات .

وقد روى سيمز حادثاً ذا مغزى عندما كان مديراً لاحدى المقاطعات ، يمكن أن يفهم منه مركز الموظفين البريطانيين ، وما تعهد إليهم السياسة البريطانية من عمل . ذلك أنه دعى إلى اجتماع مع غيره من المديرين لمقابلة سير صموئيل هور المندوب السامى ، وكان موضوع بحث الاجتماع ثورة خواطر العرب من أجل الهجرة اليهودية ، وما أدى إليه ذلك من وقف الهجرة مؤقتاً مراعاة لعواطف العرب من جهة ، وحرصاً على سلامة المهاجرين من جهة أخرى ، وكانت مظاهر السخط فى تلك الأثناء قد هدأت ، ولكن العداوات قائمة فى القلوب . وكانت المسألة التى طرحت للبحث هى : هل من الممكن استئناف قبول المهاجرين بعد وقف الهجرة مؤقتاً ؟ وكان من رأى رجال الاستعلامات الذين حضروا هذا الاجتماع أن يظل المنع قائماً . ولما سئل سيمز عن رأيه ذكر أن هذا الاجراء هو إجراء ضرورة وانتهاز للفرصة ، وأنه بهذا الوضع لا يليق بالحكومة أن تستمر فيه . ووافق المندوب السامى على رأيه ، وسأله بصفته مديراً لمقاطعة يدخل فيها ميناء حيفا الذى هو أحد الميناءين الهامين فى البلاد ، هل هو على استعداد لتحمل مسئولية قبول المهاجرين فى الحال وفتح الميناء لهم ؟ وكانت العيون ترمقه فى شئ من الشك عندما أجاب بالايجاب . ولكنه اشترط شرطين : أن يخبر بمجئ المهاجرين قبل أسبوعين من وصولهم ، وأن تطلق يده فى إخبار أهل المدينة بهذا الأمر قبل وصولهم .

وعاد إلى منصبه فى حيفا . وتناثرت أخبار هذا الاجتماع ، فجاء زعماء العرب وجاء زعماء اليهود يستطلعون الخبر . فلم يتردد فى الافضاء إليهم بالحقيقة ، وطلب إليهم أن يعملوا لهدوء أنصارهم قبل حدوث أية هجرة ، وأنه سيطلعهم على الحقيقة إذا ما جاءته أنباء عن مهاجرين .

ولكن حدث أمر لم يكن يتوقعه ؛ إذ دق بعد ذلك بأيام جرس التليفون

من القدس فى داره فى ساعة متأخرة من الليل ، وأبلغ فى لهجة الاعتذار ، أنه وصلت سفينة تحمل بضع مئات من المهاجرين الذى طافوا البحر الأبيض بأجمعه، وحاولوا أن ينزلوا مرتين فى يافا فرفضوا ، وأن بينهم مرضى وعجزة ، وقد صرح لهم من قبل بدخول فلسطين ، وحال دون دخولهم منع الهجرة المؤقت ، وقيل له إن شروطه معروفة ، ولكن هل يستطيع فى سبيل الانسانية أن يقبلهم إذ أن السفينة ستدخل بهم ميناء حيفا بعد ست وثلاثين ساعة ؟ طلب مهلة نصف ساعة يفكر فيها ، ثم وافق على هذا الطلب على أن يرسل إليه كتيبة من الفرسان البريطانيين .

وفى الصباح التالى أرسل إلى زعماء العرب مسلمين ومسيحيين ، وأطلعهم على الخبر فى صراحة ، ولقد حافظوا على سكينتهم ومجاملتهم ، و إن أخبروه علانية بأن هذا الخبر سيؤدى إلى اضطراب كبير ؛ فالناس ثائرو الخواطر لمجرد الإشاعة ، فاذا علموا بأن حيفا ستقبل مهاجرين رفضهم الوطنيون فى يافا ، فان ذلك مما يبلغ بالأمور درجة الغليان ، وقد يؤدى ذلك إلى الاضطراب و إراقة الدماء ، وأبى الزعماء أن يتعهدوا بأى شئ يتحملون تبعته فى هذا الأمر .

فأفهمهم سيمز أنه يعلم ما يساورهم من قلق ، وقال لهم إن تبعة الاحتفاظ بالأمن هى على كل حال من واجبات الحكومة ، وكل ما يرغب إليهم فيه هو بذل مجهود فى هذا الاتجاه بقدر ما يستطيعون .

وقابل سيمز بعد ذلك وفداً من اليهود ، ومن الطبيعى أنهم وافقوا على غرضه ولكنهم كانوا يرهبون ما قد يتعرضون له من أخطار ، فهل يستطيع أن يضمن السلامة ، لا للمهاجرين وحدهم بل للعدد الكبير من السكان اليهود فى أرواحهم وأموالهم ؟ وأجاب بأنه لايضمن شيئاً ، ولكنه سيبذل كل جهد مستطاع . وطلب إليهم أن يحتفظوا بمظهر السكينة بألايغلقوا حوانيتهم ، وأن يستمروا فى أعمالهم مهما يحدث من الأمور .

كانت مشارب القهوة فى اليوم التالى ، و إلى ساعة متأخرة من الليل ، تطن بالحديث بين غاضب وخائف . وأبدى قائد الشرطة مخاوفه من تجمهر الناس . فأمره المدير بأن يعمل ما فى وسعه لحفظ النظام ، إذ هو لايرغب فى الالتجاء إلى معاونة الجنود البريطانيين إلا عند الضرورة القصوى .

وفى اليوم الموعود امتطى المدير جواداً ، وسار فى شوارع المدينة الضيقة ومعه تابع ، ورأى فيها جماعات من الناس كالعادة ، ورأى الحوانيت تفتح فى شى

من التردد ، ورأى الهدوء مستتبًا أكثر مما يجب . وقد اخترق بعض شوارع أحياء المسلمين فظهرت على أهلها الدهشة ، وكانوا يردون على تحيته فى شئ من التردد . وفى ساحة صغيرة وجد جماعة من الرجال الأشداء يتناقشون فى عنف ، وفى أيديهم هراوات ثقيلة ، وحدث حينئذ أن تجاوب صوت يشبه عدة طلقات ، فارتعد أصحاب الحوانيت وبدا على وجوههم القلق ، ولم يكن ذلك إلا صوت دراجة ميكانيكية .

عاد المدير إلى مكتبه ، فأخبره كاتم أسراره أن السفينة تقترب من الميناء ، وأنه اتخذت الاحتياطات من رجال الشرطة ، وأن الناس يتجمعون غاضبين حول خطباء يلقون خطباً نارية ، وأنه حدثت بعض حوادث ، وفى الوقت ذاته أعلن بوجود زعيم دينى كبير من المسيحيين جاء لمقابلته ، وهو يرغب أن يراه فى الحال . كان هذا الزعيم ، على وصف المدير ، رجلا مهيب الطلعة ، يقال إن صورته طبعت على بطاقات وبيعت فى فرنسا ، لجمع أموال للأعمال الخيرية ، فلقيت نجاحاً كبيراً ، لما فيها من شبه للمسيح كما يصوره المصورون فى القرون الوسطى ، وكان يلعب دوراً هامًّا فى الأمور المحلية ، وكان سياسيا متحمساً ، وفى بعض الأوقات يبلغ به التحمس أن يصير خطراً .

قابله المدير ، وأخذ الزعيم الدينى يتكلم فى لغة عربية بليغة لم يكن المدير يفهمها حق الفهم ، فأخذ الزعيم يشرح رأيه بلغة فرنسية طلقة ، وكان يطلب إلى المدير حرصاً على مصلحة المدير نفسه ، ومصلحة العرب واليهود وسائر العالم ، أن يعدل عن السماح للمهاجرين بالنزول من السفينة إلى البر ، وأن يردهم من حيث أتوا . وظل يشرح رأيه ويبدى ويعيد فى أقواله دون ملل ، ولم يقطع تدفق الحديث حتى صوت التليفون وهو يدعو المدير ، وحتى حديث المدير فيه . وقد استمر فى بيانه بالرغم من أن المدير كان بين آن وآخر يصغى إلى محادثة تليفونية . وبعد آخر محادثة نظر المدير إلى ساعته ، فاذا الزعيم قد مضى ساعتين فى شرحه . وعندئذ وقف المدير معتذراً لكى ينهى المقابلة ، وقال الزعيم فى رقة إنه يرجو أن لا يذهب توسطه هباء ، وأن أية محاولة لنزول المهاجرين ستكون ذات شأن خطير . فأخبره المدير فى وداعة وصراحة ، أن المهاجرين قد نقلوا من السفينة إلى معسكر يقيمون فيه ، وأن قائد الشرطة حين أبلغه هذا الخبر تليفونيا قال له إن ذلك جرى فى سكينة حتى إنه لم ينبح كلب واحد .

وهكذا نرى صراحة المؤلف فى وصف الدور الذى كان يقوم به فى فلسطين ، ويقوم به مئات من أمثاله من الموظفين البريطانيين حتى اليوم .

عندما عين سير ستيوارت سيمز حاكماً للسودان المصرى الانجليزى فى سنة ١٩٣٤ ، لم يكن السودان غريباً عليه ، فقد عرفه وخدم فيه فى مبدأ حياته العملية ، وعاشر فيه كتشنر وونجت ، وخبر السياسة التى كان يكبها أولئك البريطانيون الذين سلمت إليهم إدارة البلاد بعد أن أعيد فتحها ، ليمثلوا مصر و بريطانيا فى تلك الأرجاء ، على أن يكونوا مخلصين لما أسموه بالحكم الثنائى . وهو رجل ، كما أشرنا من قبل ، يؤمن بالسياسة التى وضعتها حكومته ، وينفذها فى دقة و إخلاص . وهو كذلك رجل صريح ، فهو يتكلم فى بساطة متخذاً وجهة نظر بريطانية صرفة ، لا يناقش شيئاً ولا يجادل شيئاً .

ولقد قابل تعيينه حاكماً بالسودان بالسرور ، لأنه كان يعرف دخائل الادارة فيه ، ويعرف الرجال الذين سيعملون معه ، وهم على قوله رجال من خريجى المدارس العامة مثله ، أى ليسوا من الجامعيين ، ولكنهم قديرون فى الأعمال الادارية ، يرمون إلى الغرض فلا يخطئون إصابته . و يرى أنهم نجحوا فى نقل السودان من حالة التوحش إلى المدنية ، وأنهم أوجدوا فيه الرخاء ، حتى صار الأجنبى يستطيع السياحة فى أرجاء السودان دون أن يحمل سلاحاً ، وينتقل فى البلاد فيقابل من الأهالى المحليين مقابلة الصديق ، وأن الانجليزى بنوع خاص يعتبر ضيفاً كريماً ، وأنه لا توجد فى السودان حوائل اللون ؛ فالسودانيون والانجليز كل يحتفظ بعاداته وعقائده دون أن يقوم بينهم خلاف على حق التقدم .

والسودان مساحة واسعة ضخمة ، يسود فيها جو مرهق ، ويسكنه ستة ملايين من الناس .

وقد يستطيع المرء أن يكوّن فكرة عن مساحته واختلاف سكانه ، إذا قام برحلة جوية فوق الملايين من الأميال المربعة التى تتألف منها مساحته . فالسائح الذى يسافر جنوباً من خط العرض الثانى والعشرين إلى خط العرض الرابع فوق خط الاستواء ، يستطيع أن يرى مجرى النيل وفروعه الكبيرة ، فيرى شريطاً ضيقاً من خضرة ماء النهر تتعرج فيما يبدو صحراء لا نهاية لها ، حتى خط العرض الثالث عشر ، ثم يدخل هذا الشريط إلى أرض تغطيها الأحراش المنتشرة

ثم يمر بعد ذلك على مستنقعات منبسطة ، وهى المنطقة التى تعرف بمنطقة السدود. ثم يدخل المديرية الاستوائية . و يمكن هذا السائح أن يتعرف الأحوال إذا نزل فى عدة أما كن ؛ فيرى أن السكان الذين يعرفون بالجنس البربرى عند وادى حلفا يزداد لون بشرتهم سواداً حيث يرى الزراع فيما يجاور الخرطوم . و إلى جانبها عند أم درمان يرى خليطاً من الأجناس التى تمثل شمال إفريقية ، تعداده مائة ألف رجل وامرأة . وفى الملا كال على بعد خمسمائة ميل إلى الجنوب ، يرى نوعاً من سكان النيل ، نحيلا عارى الجسد . وهؤلاء يحيون حياة بسيطة ، ولهم عادات لا يألفها سكان شمال السودان ، وبعد ذلك تأتى مساحة تسكنها قبائل زراعية لغتها تشبه لغة بعض سكان شرق إفريقية ووسطها .

والسائح الذى يسافر من الشرق إلى الغرب ، أى من البحر الأحمر إلى إفريقية الفرنسية الاستوائية ، وهى سياحة ألف وخمسمائة ميل ، يجد أيضاً مثل هذا التنوع . فهو يبتدئ من ميناء بور سودان الحديث إلى التلال التى تسكنها قبائل البجا منذ آلاف السنين ، ثم يصل إلى كردفان وما فيها من أهل التلال الوثنيين الذين صاروا الآن من زراع القطن . ثم يصل إلى دارفور التى كانت سنة ١٩١٦ ولايةوطنية ، وقد احتفظت إلى الآن ، بعد أن صارت تابعة لحكومة السودان ، بحياتها الخاصة ؛ فتجد الجمالة فى الشمال والبقارة فى الجنوب ، ولايزال لها ملوكها وفرسانها الذين يلبسون الدروع فى الاحتفالات و يمتطون الجياد المسومة .

وهو يقول إنه بالرغم من هذا الاختلاف فى سكان السودان أتيح للسودان فرصة أمن وهدوء بعد القضاء على حكم الدراويش فى سنة ١٨٩٨ ، وكان الفضل فيها للضباط الحربيين من البريطانيين ، يعاونهم زملاء مصريون قديرون . وكان عملهم فى الأيام الأولى ثقيلا جدًّا ، وكان مفتاح هذه السياسة الابتعاد عن المركزية ، واستخدام القوى الأهلية فى إدارة السودان . واعترف فى هذا النظام بالأقسام التاريخية للبلاد ، وبقوة العلاقات التقليدية ، مما مكن من إيجاد هيئات أهلية تتعاون فى النهضة الاقتصادية . وقد أريد قيام فريق من الأهالى بالاشتراك فى الحكم لكى تنمو الهيئات التى تؤدى للحكم الذاتى . ولا ريب أن الحالة كانت تحتاج فى بادئ الأمر إلى أن يحال بين الأهالى الحاكمين وسوء استعمال سلطتهم . ولذلك كان الموظفون السياسيون حذرين كل الحذر ، وهم يراقبون انتقال النظم التى تقوم على تقاليد القبيلة إلى نظم حديثة .

ومما ساعد على الرخاء أنه أنفق مالاً يقل على عشرين مليوناً من الجنيهات على الأعمال النافعة . وتقوم مصر بالنفقات الأساسية ، أما القروض السودانية التى تمت أخيراً فكانت بضمان الخزينة البريطانية .

على أن مشاكل السودان ليست بالقليلة ؛ فهو مساحة واسعة يسكنها عدد قليل من السكان موزعون . والبلد زراعى ، ولكن كثيراً من أراضيه غير خصب والأمطار غير موزعة توزيعاً حسناً ، وهى خفيفة فى مناطق عديدة . وتقوم ثروة السودان على التجارة الصادرة فى منتجات أولية تختلف أثمانها اختلافاً بيناً بين سنة وأخرى حسب الانتاج المحلى والأسعار العالمية . أما المنتجات المعدنية فقليلة جداً .

وتختلف الأحوال العامة فى شمال السودان عنها فى الجنوب ؛ ففى الشمال تعتبر اللغة العربية هى اللغة المعروفة من الجميع ، والآراء الاجتماعية والثقافية العربية هى معروفة لدى الجميع . والسكان من مسلمين ومتعربين ، الذين يعيشون إلى شمال خط العرض الثانى عشر ، تطل نوافذهم السياسية على مصر والبحر الأبيض ، وتطل مع الشرق على منبع دينهم . ولكن إلى الجنوب من ذلك الخط نجد خليطاً من القبائل لها لغات وعادات مختلفة ، لا يربطها رابط عاطفى غير الحاجة الأولية إلى الطعام والنسل والدفاع .

وقد أخذ فى تنظيم هذه الجماعات الجنوبية ، وهذا هو الغرض مما سمى بسياسة الجنوب ؛ فهى سياسة تعترف بأن الجنوب إفريقى ينتمى كلية إلى الجنس الأسود .

ويقول سير سيمز إن من المشاكل التى تقوم فى السودان مشكلة الطبقة المتعلمة . وقد حرصت الادارة على ألا يزيد عدد المتعلمين تعليما كتابيا عما تحتاج إليه الأعمال العامة . ومع ذلك فان جميع الوظائف الصغيرة يشغلها سودانيون . أما الوظائف الكبيرة التى تحتاج إلى تعليم فنى فان عدد السودانيين فيها قليل جداً ، ولكن ظهر فى ميدان العمل أخيراً عدد من ذوى المؤهلات الطبية والقانونية من السودانيين ، وهذا فأل حسن للمستقبل .

ولم يقترح سير سيمز فى أثناء حكمه إجراء أية تعديلات دستورية . وهو يرى أن الوصاية البريطانية ضرورية للاحتفاظ بمستوى الخدمات العامة ، ولكن قد يمكن السير خطوات نحو الاستقلال الذاتى ، وحتى فى شمال السودان يجب أن يمضى بعض الوقت قبل إيجاد المنشآت النيابية لحكومة مسئولة .

وهنالك فضلا عن العقبات المحلية اعتبار آخر يجب مراعاته ، وهو حقوق

ومصالح شريك ثالث هو مصر. فان هذا الشريان القديم الذى هو نهر النيل ، يؤيد و يربط حظوظ ثلاثة عناصر متباينة من الجنس البشرى ، وهو ذلك الخليط من السكان الذين يعيشون فى جنوب السودان وأغلبهم وثنيون ، ثم العرب المسلمون فى شمال السودان ، ثم فلاحو الصعيد والدلتا . ولكل فريق من هذه العناصر مصلحة قائمة فى النهر . وللفلاحين الأسبقية فى القدم وفى الأهمية المادية والسياسية . وهذا كان الباعث الأساسى الذى أدى إلى التدخل الحربى المصرى فى السودان فى أوائل القرن التاسع عشر ، ثم إعادةفتح السودان بالجيش المصرى البريطانى فى نهاية ذلك القرن . وهذا هو الذى دعا إلى تأليف الحكم الثنائى . ولقد أدى الاضطراب الوطنى فى مصر إلى إخراج الجيش المصرى منه ، و إحلال قوة الدفاع السودانية محله ، وعزل طائفة من الموظفين والضباط المصريين . ولكن هذه الحوادث أثارت فى نفوس المصريين ناراً مشبوبة . وظلت المسألة السودانية جرحاً لا يندمل بين مصر و بريطانيا ، وظل النفوذ المصرى مبعداً عن السودان مدة عشر سنوات أو أكثر .

ثم حدث الاعتداء الايطالى على الحبشة ، وهدد المحور سلامة البحر الأبيض والعالم ، فخلق ذلك موقفاً جديداً أرغم أشد الوطنيين المصريين تحمساً ، بزعامة النحاس باشا الرشيدة ، أن يعيدوا النظر فى موقفهم .

ومع ذلك فمشكلة العلاقات بين مصر والسودان ، لا سيما المسلمين من سكانه فى الشمال ، لا تزال وستبقى مشكلة شائكة . ولا يمكن الوطنى المصرى فى اهتمامه بمسائل مياه النيل والعلاقات الدينية مع السودان أن يقلع عن اهتمامه بمستقبل تلك البلاد ، ولا يمكن فى أى ظرف أن تقبل حكومة فى السودان تكون غير صديقة أو غير بادية الكفاية .

ولعل الخطر فى السير بسفينة الادارة فى السودان فى رأى مؤلف الكتاب ، هو ألا يقدر البريطانيون الطبيعة المعقدة للمشاكل السياسية فى السودان ، وألا يقدروا روح الوطنية المصرية ، وألا يقدروا الروح الوطنية فى شمال السودان ، فبين هذه الصخور المعترضة يجب أن تسير السفينة . وفى رأيه أن خير حكمة تنطبق على حالة السودان ، هو العمل بقول القائل : العجلة من الشيطان .

حسن محمود